كفى بميادين الحضارة فخراً لعصر بني العباس

أولاً: النظام السياسي:

لقد قام النظام السياسي العباسي على أسس ومقوِّمات كان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور أول من وضعها، وأتقن في تفصيلها، وتوزيعها.

ونذكر على وجه السرعة بعض مناصب الدولة آنذاك: الخلافة والوزارة والكتابة والحجابة.

ثانياً: النظام الإداري:

نذكر من مناصبه: الإمارة على البلدان والأقاليم والدواوين والبريد والشرطة.

وقد نقلت لنا كتب التاريخ كلاماً رائعاً ووصفاً بليغاً لأبي جعفرٍ منصور حول الوظائف المذكورة آنفاً، إذ يقول: «ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعةُ نفرٍ لا يكون على بابي أعف منهم، قيل له فمن هم ؟، قال: هم أركان الملك لا يصلح الملك إلا بهم كما أنّ السرير لا يصلح إلاّ بأربع قوائم إن نقصت واحدة تداعى وهوى: أمّا أحدهم فقاضٍ لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطةٍ ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراجٍ يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمهم غني والرابع، ثمَّ عضَّ على إصبعه السبابة ثلاث مراتٍ يقول في كل مرةٍ آهٍ آه. فقيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين ؟، قال صاحب بريدٍ يكتب بخبر هؤلاء على الصِّحة[1].

وقد روي أنّ عبد الملك قال لحاجبه قد وليتك حجابةَ بابي إلاّ عن ثلاثة:

١- الطبري، جـ٩، ص (٢٩٧).

المؤذن للصلاة فإنّه داعي الله، وصاحب البريد فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد[1].

ثالثاً: النظام الحربي:

بلغ عدد الجيش في عهد الخلفاء العباسيين مئات الألوف من الجند الذين كانوا يكونون الجيش النظامي للدولة، وكانت رواتبهم تدفع لهم بانتظام، ولما بلغت قوة العباسيين أشدها في بغداد أصبح الجندي يتقاضى راتباً شهرياً قدره عشرون درهماً[2].

رابعاً: النظام الاقتصادي:

١- الزراعة:

اعتنى العباسيون بالزراعة اعتناءً رائعاً لا مثيل له، ابتداءً من شق قنوات الريِّ، إلى دراسة أنواع التربة، والتفصيل في اختيار مواسم الزراعة، ومن الفواكه التي أدخلت زراعتها في أرض الدولة العباسية النارنج، وقد ذكر (المقدسي) في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» أنَّ ثمار النارنج في فلسطين كانت من أحسن الأنواع.

وكانت بلاد الشام تشتهر بتفاحها الذي أصبح مضرب المثل بين البلدان، كما كثرت أشجار الزيتون بفلسطين ولا سيَّما بنابلس التي كان أهلها يستخرجون منها الزيوت[3].

١- الشيخ محمد الخضري بك، ص (٨٧).

٢- د. حسن إبراهيم حسن، جـ٢، ص (٢٧٤).

٣- المصدر السابق، ص (٣٠٧).

٢- الصناعة:

اشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج والخزف، وفي مستهل القرن الثاني للهجرة كان الزجاج الملون يُصدّر إلى كثيرٍ من جهات العالم، وبلغت هذه البلاد في نقش الزجاج بالذهب والألوان الأخرى درجةً كبيرةً من الإتقان [١].

واشتهرت البصرة بصناعة الصابون والزجاج، ولا سيما في عهد الخليفة المعتصم الذي شيَّد مصانع جديدةً في بغداد وسامرا وغيرها من المدن؛ كما أنشأ مصانع للورق في عدة مدنٍ، وجلب لها الأساتذة، والصنَّاع من مصر التي اشتهرت بصناعة الورق منذ عهدٍ بعيد[٢]، وكان لكل صناعةٍ سوق خاص بها، كسوق الوراقين والنجارين والحدادين[٣].

أمَّا عن الأندلس فقد أُسس بغرناطة حديقةٌ للنباتات، سمح بدخولها للأطباء لدراسة النباتات النادرة، وقد أقام ابن البيطار النباتي المشهور الذي عاش في القرن السابع للهجرة (الثالث عشر الميلادي) بغرس نباتات الشام وآسيا ومصر فيها، ولا ننسى ذكر صناعة أدوات الحروب التي برع بها أهل الأندلس من سفنٍ ودروعٍ ورماحٍ وسروجٍ تذهل الأبصار[٤].

وقد ذكر لنا المقريزي نوعاً رائعاً من الصناعة؛ ذلك أنَّ الخليفة الفاطمي المعز أمر في سنة ٣٥٣هـ بعمل خريطةٍ من الحرير الأزرق المنسوج بالذهب، وكان قد بُني عليها بالذهب كافة أقطار العالم بما فيها من جبالٍ وبحارٍ وطرق

١- أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ص (٣٦٤، ٣٦٥)

٢- د. حسن إبراهيم حسن جـ٢ ،ص (٣٠٨).

٣- أمين زكي، كتاب عمران بغداد، ص (١٠٨).

٤- المقري، نفح الطيب، جـ١، ص (٩٥، ٩٦).

ومدن، كما عُمل جاهداً أن تظهر المدينة المنورة ومكة على نحوٍ ينتبه إليه الناظر لأول وهلة[1].

٣- التجارة:

ازدهرت التجارة على نحوٍ واسع في عصر العباسيين، وكان اهتمام الخلفاء، وولاة الأقاليم بها كبيراً؛ فقد كان المسلمون في العصر العباسي الأول يُصدرون الشعير والحنطة، والأرز والفاكهة، والأقمشة الصوفية والحريرية، والزيت والعطور، كماء الورد والزعفران وزيت البنفسج وغيرها الكثير [2].

خامساً: أمراء الشعر العربي:

نبغ في الشعر عددٌ هائل من الشعراء في عصر الخلافة العباسية، فكانت أشعارهم تتقلب بتقلب الأحوال السياسية الاجتماعية، وسنكتفي هنا بسرد بعض أعظم شعراء العصر العباسي آنذاك:

١- أبو العلاء المعري[3].

٢- أبو الطيب المتنبي[4].

٣- ابن الرومي[5].

١- نقلاً من كتاب حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص (٥٢٢).

٢- سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ص (٢٦٦).

٣- أبو العلاء المعري (٣٦٣ هـ- ٤٤٩ هـ)، (٩٧٣-١٠٥٧م)، شاعر وفيلسوف وأديب عربي من العصر العباسي، ولد وتوفي في معرة النعمان في الشمال السوري.

٤- هو أحمد بن الحسين أبو الطيب الكوفي، ولد سنة ٣٠٣ هـ في الكوفة بالعراق، وكان أحد أعظم شعراء العرب، وأكثرهم تمكناً باللغة العربية وأعلمهم بقواعدها ومفرداتها. ترك تراثاً عظيماً من الشعر، يضم ٣٢٦ قصيدة.

٥- أبو الحسن علي بن الشهير بابن الرومي الشاعر. (٢٢١هـ- ٢٨٣هـ).

٤- البحتري[١]

٥- أبو نواس[٢]

٦- أبو العتاهية

تمثال للشاعر أبو نواس
في العاصمة العراقية بغداد

صورة متخيلة للمتنبي
بريشة أرتورو أورتس

سادساً: المذاهب الفقهية:

١- المذهب الحنفي:

ينسب المذهب الحنفي إلى النعمان بن ثابت؛ المولود في الكوفة سنة ٨٠هـ، والمتوفى عام ١٥٠هـ، وقد نشأ في الكوفة، حيث الحركة العلمية الدائبة، فتأثر في طفولته، وتلقى العلم عن كبار علماء الكوفة، وبفضل ذكائه وصبره استطاع أن

١- البحتري (٨٢١ م- ٨٩٨ م): هو أبو عبادة الوليد بن عبيد، أحد أشهر الشعراء العرب في العصر العباسي.

٢- أبو نواس أو الحسن بن هانئ الحكمي الدمشقي شاعر عربي من أشهر شعراء العصر العباسي.

يحتل مكانةً كبيرة بين علماء عصره، ممَّا مكّنه أن يقوم للتدريس، فالتفَّ الناس حوله، ووجدوا فيه علماً غزيراً، وقدرةُ على المناظرة والمجادلة.

ومما ساعد على انتشار مذهبه أنَّه كان المذهب الرسمي للدولة العباسيَّة؛ نظراً لأن قاضي القضاة هو الإمام أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة؛ إذ كان يختار للقضاء من درس الفقه الحنفي.

٢- المذهب المالكي:

ينسب المذهب المالكي إلى شيخه الإمام مالك بن أنس، المولود في المدينة سنة ٩٣هـ، والمتوفى فيها سنة ١٧٩هـ، وقد نشأ مالك في المدينة، فتأثر بالبيئة العلمية التي كانت مسيطرةً على مدينة الرسول الكريم، وتلقى العلم من علماء المدينة، فاستطاع بجهده ودأبه وإلحاحه في طلب العلم، أن يتبوأ مكانةً كبيرة في النفوس، وقد ترك كتابه الشهير ((الموطّأ)) الذي جمع فيه الأحاديث الصحاح والفتاوى، فكان كتاب فقهٍ وحديث في آنٍ واحد.

٣- المذهب الشافعي:

ينسب المذهب الشافعي إلى محمد بن إدريس الشافعي المولود في غزة سنة ١٥٠هـ، والمتوفى في مصر سنة ٢٠٤هـ، وقد نشأ يتيماً بسبب فقد والده، فانتقلت به أمه إلى مكة، وفي مكة تلقى العلم عن شيوخه فيها، ثم رحل إلى المدينة حيث التقى بالإمام مالك وأخذ عنه العلم.

وكان على صلةٍ وثيقة بالإمام محمد بن حسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة، فأخذ عنه كثيراً من علمه وفقهه.... وهكذا استطاع الشافعي أن يجمع بين منهجي مالك رائد مدرسة الحديث، وأبي حنيفة رائد مدرسة الرأي، فألف كتباً عديدة أهمها كتاب ((الأُم)).

٤- المذهب الحنبلي:

ينسب هذا المذهب إلى الإمام أحمد بن حنبل المولود في بغداد سنة ١٦٤هـ، والمتوفى فيها سنة ٢٤١هـ. والذي بدت عليه منذ طفولته علائم النجابة والنبوغ والتقوى والصلاح، ولهذا اتجه إلى دراسة الحديث والرواية ، فكان يرحل إلى مختلف الأمصار، وأتاح له ذلك أن التقى الإمام الشافعي في الحجاز فأخذ عنه الفقه والأصول.

سابعاً: العلوم بأنواعها:

وهنا يطول بنا البحث، فقد أبدع العرب زمن الخلافة العباسية في مجالات العلوم كافة، وقبل أن نشرع بالحديث عن تلك العلوم يجدر الإشارة إلى أنَّ لفظ العرب هنا يشمل كلَّ من تكلم بالعربية وكتب بها، دون النظر إلى أصله أعربيَّاً كان أم أعجميَّاً.

ولننطلق ببحثنا هذا من شهادات الغرب الذين شهدوا على أنفسهم بمقدار الفائدة التي حصَّلوها من علمائنا الذين- ويا للأسف الشديد- كثيرٌ منَّا لا يعلم عنهم إلا الاسم.

جاء في كتاب (القيم الخالدة في الإسلام) للعالم الشهير ((اميل درمنغم[١])): «إنَّ حضارة الإسلام تقوم على رسالة سماويَّة، نظامها الاجتماعي يقوم على أسرةٍ متماسكة، ونظامها الاقتصادي يعتبر المال وسيلةً لا غاية، ويحترم الملكيَّة الفرديَّة غير المستغلَّة، وثقافتها تستخدم العقل في كسب المعارف»[٢].

١- اميل درمنغم: (١٨٩٢- ١٩٧١م).

٢- أثر العلماء المسلمين، ص (١١٦).

وقال الدكتور ((غوستاف لوبون[1])) المؤرخ الفرنسي في كتابه (حضارة العرب): «إنَّ فلاسفة العرب والمسلمين هم أول من علَّم العالم كيف تتَّفقُ حرية الفكر مع استقام الدين»[2].

ويقول الأستاذ ((كريستوفر داوس)): «عن العرب أخذت التقاليد العلميَّة في أوربا الحديثة، وقد أسهم العرب في توسيع آفاق الأوربيين توسيعاً لم يسبق له مثيل؛ إذ بفضلهم انتقلت إلى أوروبا حضاراتِ الصين والهند والفرس، وبفضل العرب انتقلت علوم الشرق إلى أوروبا، لتكون شاهدةً بما للإسلام من عظمةٍ علميَّةٍ تربويَّة وفضلٍ على الإنسان والإنسانيَّة»[3].

يقول Bolus في كتابه the influence of Islam: «إنَّ من الحق أن نؤكد أنَّ المسلمين حين ترجموا هذه العلوم إلى لغتهم زادوا عليها وحوَّروا فيها، وصبغوها صبغةً جديدة، حتى أصبحت علومهم هم، وسارع العرب فترجموا إلى لغتهم من الهندية ما يعرف الآن بالأرقام العربية، كما ترجموا علم الحساب بما في ذلك الكسور العشرية، أما علم الجبر فإذا لم نقل إنه من اختراعهم فمن الواجب أن نعترف بجهدهم في ترقيته والتطور به، ونحن الأوربيون مدينون للعرب بما وصلنا له في هذه العلوم الرياضية من نتائج، لم يكن العرب مترجمين وحسب، بل إنهم اخترعوا كثيراً ولاسيما بالفلك، فاخترعوا الاسطرلاب[4]، وتعرّفوا ساعة

١- طبيب ومؤرخ فرنسي (١٨٤١- ١٩٣١م) وهو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين أنصفوا الحضارة الإسلامية. ألف كتابه حضارة العرب عام ١٨٨٤.

٢- المصدر السابق، ص (١١٧).

٣- المصدر السابق، ص (٢١٦).

٤- آلة فلكية قديمة يطلق عليها العرب اسم ذات الصفائح، ويعود اختراعها إلى العالم الدمشقي ابن الشاطر.

كسوف الشمس وخسوف القمر، وفي الطب استطاع المسلمون أن يكتشفوا مرض الجدري، وكانوا يعرفون علم الكيمياء معرفةً تدعو للإجلال والتقدير، ونجحوا في معرفة صفات أحماض المعادن وغيرها من العلوم التي نقلت عنهم إلى أوربا»[1].

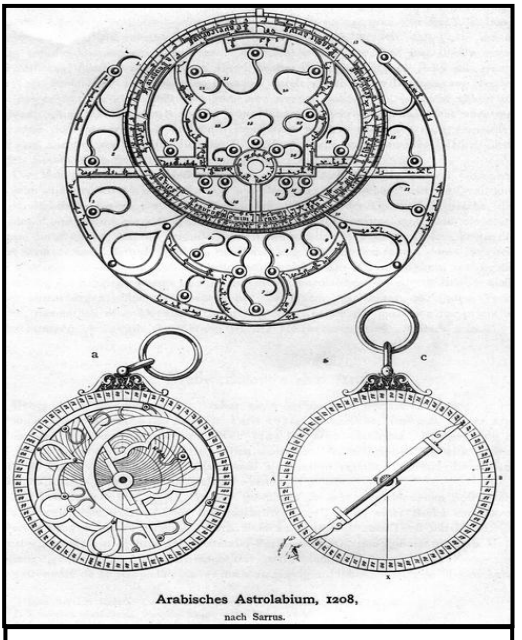

الاسطرلاب العربي سنة ١٢٠٨ م

لقد انتقلت الثقافة الإسلامية إلى أوربا المسيحيَّة، عن طريق معابر ثلاثة: إسبانيا وصقلية وسورية أيام الحروب الصليبية.

وبعد هذه الاعترافات والشهادات، والكثير الكثير غيرها مما لا يمكن سرده هنا نبدأ بالحديث عن أبرز وأجل العلوم التي برع بها المسلمون زمن الخلافة العباسية.

١- الطب:

اهتمَّ العباسيون بنشر العلوم الطبيَّة وتقدمها، فشجعوا الأطباء، وأسسوا المدارس الطبية والمستشفيات، ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبية؛ التي كان يجتمع فيها الأطباء من البلاد كافة في موسم الحج، حيث يعرض الأطباء نتائج أبحاثهم، ويعرضون نباتات العالم الإسلامي ويصفون خواصها الطبية، فأصبحت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية، ومما يذكر أنَّ

١- نقلاً عن كتاب موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، جـ٣، ص (٢٤٦، ٢٤٧)

الخليفة العباسي أبا جعفرٍ المنصور أمر ببناء مستشفى للعميان وملجأً للعجائز في بغداد، وقد شيد هارون الرشيد مستشفى كبيراً لتعليم الطب وزوَّده بالمؤلفات العلمية كافة[١].

وقد بنى صلاح الدين الأيوبي المستشفى الناصري في القاهرة، وبيمارستان الإسكندرية، كما بنى نور الدين بن محمود الزنكي المستشفى النوري الكبير في دمشق[٢].

ومن مجالات الطب التي برع بها المسلمون آنذاك؛ طب الأسنان:

فقد وصف أطباء العصر العباسي الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كلٍّ منها ولقد أعجب الخليفة الواثق بوصف حنين بن إسحاق[٣] لها؛ الذي كان قد اشتهر بعلمه في الطب، إضافةً إلى علمه بالمواد السامة، فكان أن طلب منه الواثق أن يُصنف له كتاباً يذكر فيه جميع ما يشمل هذا العلم، فصنف له كتاباً جعله ثلاث مقالات، يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء، ويصف آلات الجسد[٤].

ومما يذكر في هذا المجال أن حدث في عهد الخليفة العباسي المتوكل أن عقد سنان بن ثابت (وكان شيخاً كبيراً من شيوخ الطب) امتحاناً لأطباء بغداد، رخص بعده لثمانية وستين رجلاً بمزاولة مهنة الطب، وكان ذلك على أثر وفاة مريضٍ بسبب إهمال أحد الأطباء[٥].

١- تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، جـ٢، ص (٣٥٥).

٢- أثر العلماء المسلمين، ص (١٤٠).

٣- عالم ومترجم وطبيب؛ يعد أهم مترجمٍ إلى العربية على مر العصور، وقد عاصر تسعةً من خلفاء بني العباس.

٤- المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص (٣٦٤، ٣٦٦).

٥- تاريخ الخلافة العباسية، د. يوسف العش، ص (٢٤٥).

وكان يشرف على هؤلاء الأطباء رؤساء ومفتشون، وقد أُمر كل طبيب بأن يحتفظ بصورة من تذكرة الدواء التي يعطيها للمريض، وذلك لتقديمها إلى الرئيس ليفحصها ويحكم فيما إذا كان العلاج متفقاً مع القوانين، وكان ينزل العقاب على الطبيب إذا مات المريض بسبب إهماله أو عدم كفايته[1].

بل زاد العلماء من اهتمامهم بأساليب الشفاء والمداواة؛ فمما يذكر أنَّ علي ابن عيسى بن الجراح (وزير المقتدر) كتب إلى سنان بن ثابت- المذكور آنفاً- يطلب منه أن يعدَّ مجموعةً من الأطباء وخزانةً من الأدوية تطوف في بعض القرى النائية، فيقيمون في كل قريةٍ مدَّة ما تدعو الحاجة إلى إقامتهم، ويعالجون من فيها، ثم ينتقلون إلى غيرها، ففعل سنان ما طلب منه[2].

ونذكر شيئاً من حضارة دولة المرابطين[3] في الشمال الإفريقي، فقد فاق اهتمامهم أن أوجدوا منصباً يعرف برئيس الصناعة الطبية، وهو منصبٌ مهم يقابل ما نطلق عليه اليوم اسم وزير الصحة، فكان هو المسؤول الأول أمام الأمير في صناعة الطب، وما يتعلق بها من الأدوية والعقاقير[4].

وفي سنة ٨٣٦م أمر الخليفة المعتصم ببناء مشرحةٍ كبيرةٍ على شاطئ نهر دجلة في بغداد وأن تزود هذه المشرحة بأنواعٍ من القرود الشبيهة في تركيبها بجسم الإنسان وذلك لكي يتدرب طلبة الطب على تشريحها.

١- د. حسن إبراهيم حسن جـ٣، ص (٣٨٧).

٢- طبقات ابن القفطي، ص (١٣٢).

٣- دولة المرابطين ظهرت في الشمال الإفريقي على يد القائد العظيم يوسف بن تاشفين الذي كان له الفضل بعد الله سبحانه وتعالى بإطالة بقاء المسلمين بالأندلس بعد أن فترت همم أصحابها، ومن أشهر معارك هذه الدولة مع الفربجة الإسبان معركة الزلاقة.

٤- انظر: تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد العبادي، ص (٤٠٧، ٤٠٩).

ولم يخل كتابٌ من مؤلفات المسلمين في الطب من باب مستقل عن التشريح توصف فيه الأعضاء المختلفة بالتفصيل وكل عضلة وعرق وعصب باسمه وكان الرازي يقول في كتابه: «يمتحن المتقدم للإجازة الطبية في التشريح أولاً، فإذا لم يعرفه فلا حاجة بك أن تمتحنه على المرضى».

قام ابن الهيثم المتوفى سنة ١٠٣٧م بتشريح طبقات العين واكتشاف وظائفها؛ كالعدسة والحدقة والشبكية وتركيب الأعصاب المتصلة من العين إلى المخ. كما اكتشف ابن رشد وظائف شبكية العين.

وكان المسلمون يعتمدون أول أمرهم على ما كتبه الإغريق في تشريح جسم الإنسان وذلك تجنباً للحرج الديني، ولكنهم اكتشفوا عن طريق التشريح المقارن (أي تشريح الحيوانات) الكثير من الأخطاء في معلومات الإغريق فبدؤوا بالاعتماد على أنفسهم فاكتشفوا أن الكبد يتكون من فصين وليس من خمسة فصوص كما كان يعتقد الإغريق. واكتشف عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ١٢٣١ م أن الفك السفلي للإنسان يتكون من عظمة واحدة وليس من عظمتين كما ذكر جالينوس. واكتشف أن عظمة العجز تتكون من قطعة واحدة وليس من ست قطع كما ذكر جالينوس الإغريقي.

وفي علم طب الأعشاب اكتشفوا ألوف النباتات التي لم تكن معروفة وبينوا فوائدها. وكانت معظم الأعشاب تجرب على الحيوانات كالقرود أولا. وكان الطبيب المعالج هو الصيدلي أو العشاب في آن واحد. ثم انفصلت التخصصات وأصبح الطبيب يكتب الوصفات وتسمى (الأنعات). وكان يسلمها المريض إلى العشاب أو العطار الذي يركبها له.

وقد اشتهرت دمشق بطب الأعشاب وكان بها أشهر العطارين والمعالجين والعاملين بالأعشاب، وكان العلماء المسلمون يتحايلون على الأدوية المرة التي تعافها نفس المريض بطرق مختلفة، فابن سينا أول من أوصى بتغليف الدواء بأملاح الذهب أو الفضة لهذا السبب، فأصبحت أقراص الدواء عند المسلمين مغلفة ليس لها طعم. وقد ألف كبار العشابين العديد من الكتب والموسوعات العلمية في هذا العلم ومن أهمهم ابن البيطار في كتابه «مفردات الأدوية».

كان ابن رشد قد اكتشف المناعة التي تتولد لدى المريض بعد إصابته بمرض معد مثل الجدري. وبين أنه لا يصاب به مرة أخرى. وكانوا يصنعون نوعاً من التطعيم ضد الجدري.

وكان الطب العربي قد عني «بطب المسنين» وعرف «الطب النفسي العضوي» كطب المجانين والمسجونين، وكان ابن سينا أول من أشار إلى أثر الأحوال النفسية على الجهاز الهضمي، وقرحة المعدة، وعلى الدورة الدموية وسرعة النبض.

وبينوا أضرار مخالطة المريض بمرضٍ معد أو استعمال آنيته، ودور البصاق والإفرازات في نقل العدوى.

وقد اهتم الأمويون بتنظيم مهنة الطب وطرق العمل بها، والمعالجة وأصدروا التشريعات المنظمة لذلك، وكان يوجد قانون تشريعي ينظم مزاولة مهنة الطب، وفي عهد الخليفة المقتدر العباسي صدر أول قانون للرخص الطبية وبموجبه لا يجوز ممارسة الطب إلا بعد امتحان وشهادة. ووضعت آداب وأخلاقيات للمهنة.

وكان كل من يقوم بممارسة مهنة الطب، يؤخذ عليه قسم الطبيب المسلم والذي كان يعتمد على المحافظة على سر المريض وعلاجه دون تمييز وأن يحفظ كرامة المهنة وأسرارها.

وفي عهد الخليفة المأمون سنة ٨٣٣ م-٢١٨هـ صدر أول قانون للرخص الصيدلية، وبموجبه يجري امتحان للصيدلاني ثم يعطى مرسوماً يجيز له العمل. وأخضع القانون الصيدليات للحسبة (التفتيش).

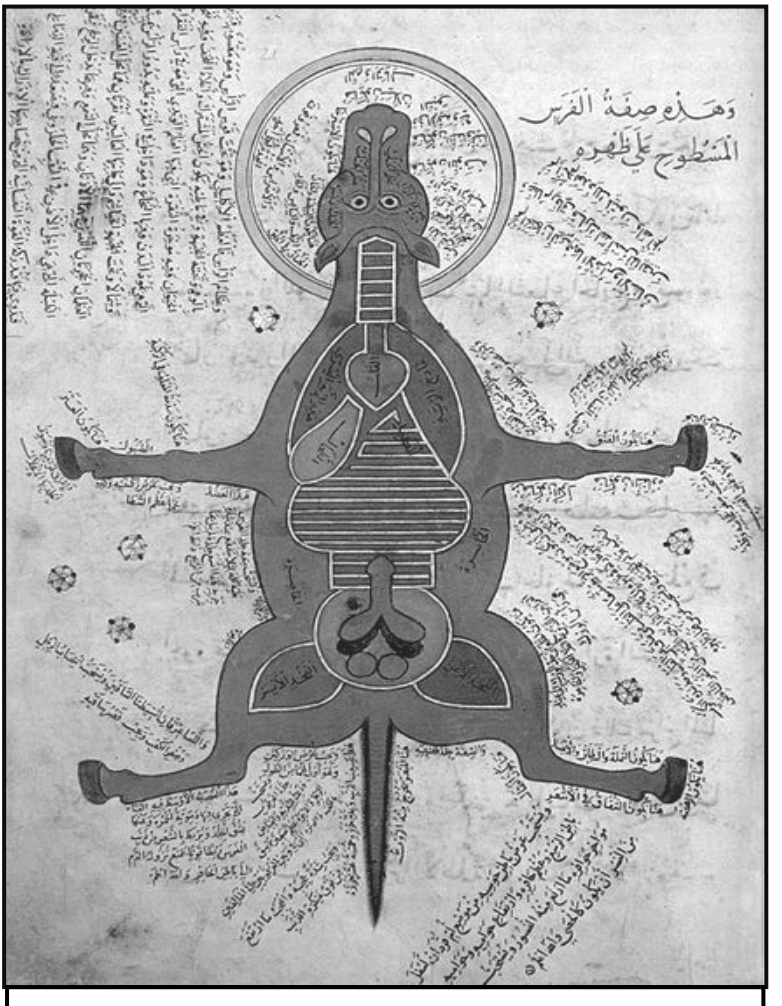

مخطوطة عربية لتشريح حصان.

شخص يقوم بتركيب دواء من عشبة برية.

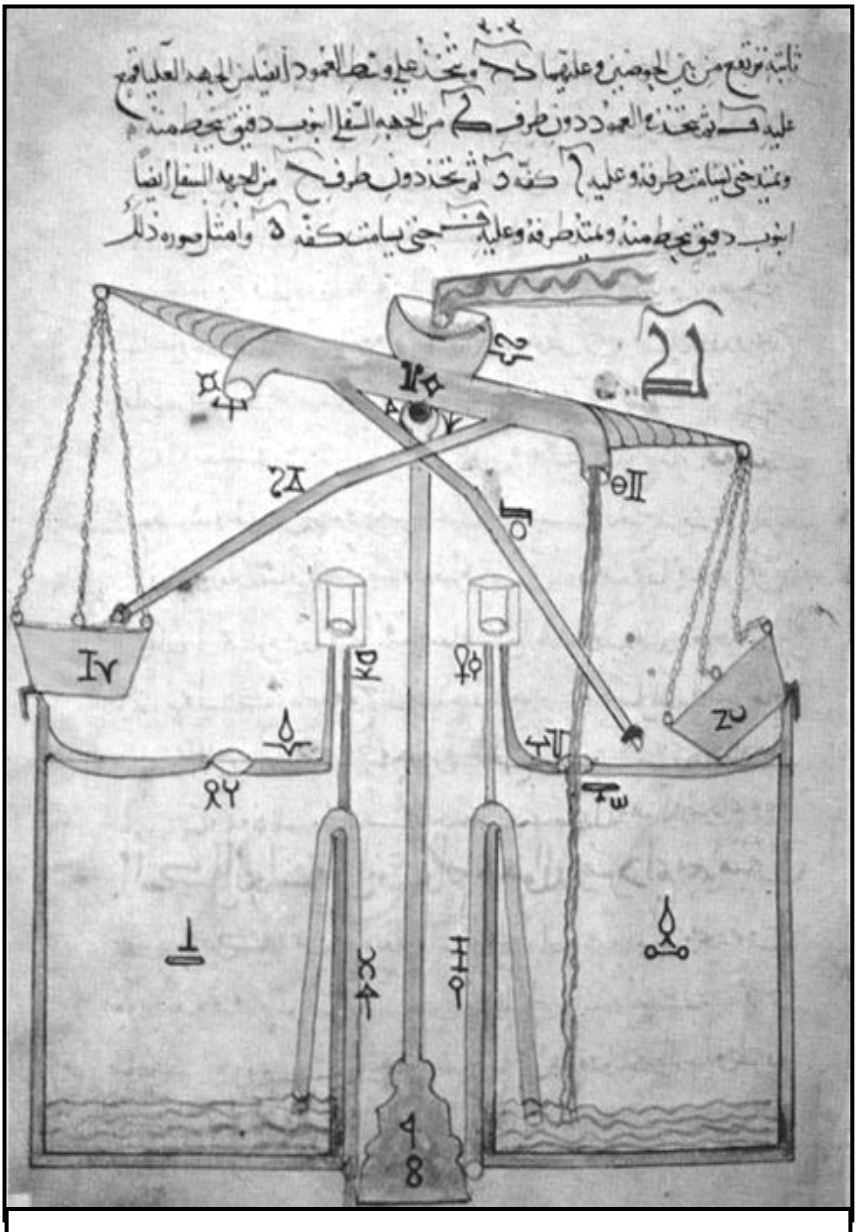

صورة من كتاب الجزري الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل

مشاهير الأطباء في العصر العباسي:

أ- أبو بكر الرازي:

محمد بن زكريا الرازي، المولود في بلدة الريّ من أقاليم فارس جنوبي طهران عام ٨٥٤م والمتوفى في بغداد عام ٩٣٢م، وقد لُقِبَ بـ(جالينوس العرب)[١]، ويُعرف عند الأوربيين باسم Rhazee، وقد ألف الرازي في الطب كتباً كثيرة، وكان متقناً لهذه الصناعة حاذقاً بها، تشد إليه الرحال للأخذ عنه، ومن الكتب التي صنفها، كتاب الحاوي؛ وهو من الكتب الكبار يدخل في مقدار ثلاثين مجلداً، ومن كتبه أيضاً كتاب الجامع؛ وهو من الكتب النافعة[٢].

واشتهر الرازي بالكرم والعطف على الفقراء المرضى، فكان يعالجهم وينفق عليهم، ومن إرشاداته الطبية: «مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية»[٣].

شهادة الغرب: خصصت جامعة برنستون[٤] الأمريكية أفخم ناحيةٍ في أجمل أبنيتها لمآثر علَمٍ من علماء الحضارة الإسلامية ألا وهو الرازي [٥].

ب- ابن سينا:

أبوعلي الحسين بن عبد الله المشهور بابن سينا، ولد في إحدى قرى بخارى عام ٩٨٠ م وتوفي عام ١٠٣٧م[٦]، حفظ القرآن الكريم ودرس الآداب، وأصول الدين، والهندسة، والجبر وهو في العاشرة من عمره، ثم درس الطب ونبغ فيه ولم يكن قد

١- أثر العلماء المسلمين، ص (١٣٨).
٢- د. حسن إبراهيم حسن جـ٣، ص (٣٨٩).
٣- د.حسن إبراهيم، ص (٣٩٠)، نقلاً من كتاب ابن خلّكان، جـ٢، ص (٧٨).
٤- جامعة خاصة تقع في ولاية نيوجرسي الأمريكية.
٥- أثر العلماء المسلمين، ص (١٣٨).
٦- المصدر السابق، ص (١٣٤).

جاوز السابع عشرة، وقد ترك ابن سينا كثيراً من كتب الطب أشهرها كتاب القانون الذي كان يدرس في مدارس أوربا أكثر من ستة قرون، ولاسيما ما يتعلق منه بعلم الصحة والرضاع، والشروط التي يجب أن تتوافر فيمن ترضع الطفل[1].

كما حدد العالم ابن سينا في كتابه «القانون» القواعد الرئيسية لجراحة السرطانات. في مراحل ثلاث هي: الاكتشاف الباكر، ثم الجراحة الباكرة، فالاستئصال التام.

وعن ابن سينا يقول السمرقندي أنَّ «كلُ من يحيط علماً بما في المجلد الأول من (القانون) لا يخفى عليه شيءٌ من أصول علم الطب وكليَّاته، ولو بعث بقراط وجالينوس إلى الحياة لحقَّ لهما أن يسجدا لهذا الكتاب».

وقبل أن ننتقل إلى عالمٍ آخر نذكر هنا قول الدكتور أوسلير[2] عن كتاب القانون لابن سينا: «إنَّ هذا الكتاب دُرّس في العالم الغربي مدَّة فاقت أي كتابٍ آخر دُرس فيه».

جـ- الزهراوي [3]:

أبو القاسم القرطبي الشهير بالزهراوي (٩٣٦- ١٠١٣م) عالم وطبيب أندلسي، ولد في الزهراء، ويعتبر أشهر جراح مسلم في العصور الوسطى، له كتاب ((التصريف لمن عجز عن التأليف)) وهو مؤلفٌ من ثلاثة أقسام: قسمٌ طبيٌّ، وقسمٌ صيدليٌّ، وقسمٌ جراحيٌّ. ومن أبرز أعماله ذِكره وصف عملية سحق

١- د. حسن إبراهيم حسن، ص (٣٩٢).

٢- وهو sir William Osler طبيب كندي، عمل كأستاذ في جامعة أوكسفورد، وهو أول من أدخل استعمال المجاهر، ومعامل التشريح في الجامعات الكندية.

٣- أثر العلماء، ص (١٣٦، ١٣٧).

الحصاة في وهي عملية لم يجرؤ أي جراح في أوروبا على إجرائها إلا في القرن التاسع عشر أي بعده بتسعة قرون.

صورة تخيلية للزهراوي

وذكر الزهراوي علاج السرطان في كتابه «التصريف» قائلاً: «متى كان السرطان في موضع يمكن استئصاله كله كالسرطان الذي يكون في الثدي ونحوه من الأعضاء المتمكنة لإخراجه بجملته، فإذا كان مبتدءاً صغيراً فافعل. أما متى تقدم فلا ينبغي أن تقربه فإني ما استطعت أن أبرئ منه أحداً. ولا رأيت أحداً قبلي وصل إلى ذلك».

شهادة الغرب: طبعَ كتاب الزهراوي باللاتينيَّة عام ١٤٩٧م، وحسبُنا أن نعلم أنَّ كتاب الزهراوي المؤلف من واحدٍ وعشرين جزءاً في الطب والجراحة، قد اشتمل على أكثر من مائتي شكلٍ للآلات والأدوات الجراحيَّة، التي كان العالم يستعملها في ممارسة أعمال الجراحيَّة، وهو أحد الكتب السبعة التي قام عليها العلاج والصيدلة في أوربا، وهو أوَّل من وفق في ربط الشرايين لمنع النزيف (على ما ورد في دائرة المعارف البريطانيَّة).

د- ابن البيطار النباتي:

ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي، ولد في مدينة مالقة في الأندلس عام ١١٩٧م، واشتهر بلقب ابن البيطار لأنَّ والده كان طبيباً بيطريَّاً ماهراً، وقد اهتمَّ بالنباتات فألف موسوعةً عن إعداد وتركيب الدواء، ذكر فيها ١٤٠٠ نوع من النباتات، حيث كان يجوب العالم ومعه رسام يرسم له في كتابه النبات بالألوان في

شتى أحواله وأطواره ونموه. وقد اكتشف وحده ٣٠٠ نبات طبي جديد شرحها في كتبه واستجلبها معه. وكانت وفاته رحمه الله بدمشق سنة ١٢٤٨م.

هـ- ابن النفيس:

صورة تخيلية لابن النفيس

أبو الحسن علاء الدين بن أبي الحرم الدمشقي الملقب بابن النفيس، ولد بدمشق في سورية (٦٠٧هـ/١٢١٣م، ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م) وهو عالم وطبيب عربي مسلم، له مساهماتٌ كثيرةٌ في تطور الطب، ويعد مكتشف الدورة الدموية الصغرى، ويعتبر من رواد علمِ وظائف الأعضاء في الإنسان، حيث وضع نظريات يعتمد عليها العلماء إلى الآن. ويعتبره كثيرون أعظم شخصية طبية في القرن السابع الهجري.

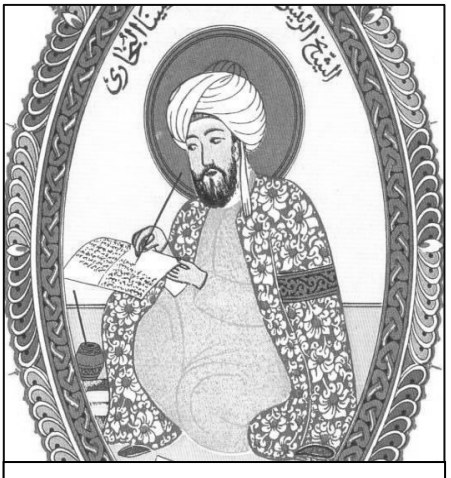

صورة تخيلية لابن سينا

تمثال لابن البيطار في مدينة مالقة في إسبانيا

٢- الكيمياء:

كان العرب هم أول من صنع بارود المدافع واستعملوه كقوةٍ دافعةٍ تدميريَّة في الحروب. بينما كان الصينيون يستخدمون الملح الصيني من ملح البارود الخام لخاصية الاشتعال في الألعاب النارية في أعيادهم، وقد نقل العالم (بيكون) لأوربا تقنية صناعة البارود بعد ثلاثة قرون من استعمال العرب واختراعهم له.

وكانت المناجيق العربية تطلق قذائف النيران الحارقة. وكانت القذيفة تتكون من خليط من الكبريت والنفط والحجارة ملفوفة في الكتان، وفي الحروب الصليبية ابتكر المسلمون آلة جديدة أطلقوا عليها (**الزيار**) لرمي أعدادٍ كبيرةٍ من السهام الثقيلة دفعة واحدة.

وكان الأسطول الأموي يستخدم **النفاطة** (مزيج من السوائل الحارقة تطلق من أسطوانة في مقدمة السفينة وتسمى النار الإغريقية، وهي خليط من الكبريت والمواد سهلة الاشتعال ومادة الجير الحي التي تتفاعل مع الماء فتنتج الحرارة).

وفي علم السبائك كانت صناعة الصلب العربي الذي تُصنع منه الأسلحة فقد بلغت هذه الصناعة أوجها في دمشق والقاهرة، وأصبح السيف العربي لا يدانيه سيف، وقد اشتهر السيف الدمشقي شهرةً كبيرةً من حيث حدة شفرته وعدم قابليته للصدأ أو الاعوجاج، وسمي المعدن الذي يصنع منه السيف الدمشقي بالمعدن الأسطوري. وكان المسلمون قد طوروا في أسلحتهم فكانوا يستخدمون الأسلحة الثقيلة كالدبابة والمنجنيق لمهاجمة البيزنطيين.

ومن أشهر الكيميائيين جابر بن حيان: (١٠١هـ/٧٢١م- ١٩٩هـ/ ٨١٥م).

عالم عربي من أعظم علماء القرون الوسطى، أصله من خراسان، عاش معظم حياته في الكوفة، ويعرفه الأوربيون باسم Geber وتوفي في عهد الخليفة

المهدي[1]، وقد ألف جابر كتباً كثيرة في الكيمياء والمعادن انتفع بها الأوربيون[2].

وهذه قائمةٌ بسيطة حول بعض منجزاته في علوم الكيمياء:

١- اكتشف الصودا الكاوية أو القطران (Na Oh).

٢- نجح في وضع أول طريقةٍ للتقطير في العالم.

٣- أول من اكتشف حمض النتريك.

٣- الحساب والجبر:

أمَّا علم الرياضيات فقد لقي اهتماماً خاصاً وكبيراً من العلماء المسلمين من أمثال الخوارزمي والبتاني والبيروني، وفي هذا يقول الأستاذ دو هينولد: «يجب عدُّ العرب مؤسسين حقيقيين للعلوم الطبيعيَّة»[3].

فقد كان أثر العرب في الرياضيات كبيراً، فهم الذين أدخلوا الترقيم العشري في الحساب؛ وفي هذا رقيٌّ كبير في العلم، وكانت الأعداد حتى الـ(٩) معروفةً ترقم، إلا أن الصفر لم يكن معروفاً، والخوارزمي هو من عمم الصفر، أمَّا الجبر فقد وضع لأول مرةٍ باللغة العربية، وذلك على يد الخوارزمي في كتابه (الجبر والمقابلة) فمنه تبدو أصول الجبر، أمَّا الذي تقدم بالجبر خطواتٍ كبيرة فهو عمر الخيام والذي حل حلولاً هندسيةً من الدرجة الثالثة[4].

ونذكر بعض أسماء علماء الرياضيات في ذلك العصر كأمثال:

١- (١٥٨- ١٦٩هـ)

٢- د. حسن إبراهيم، جـ٢، ص (٣٥٢).

٣- أثر العلماء، ص (١٥١).

٤- تاريخ الخلافة العباسية، د. يوسف العش، ص (٢٤٩).

١- أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم:

رسم تخيلي
لابن الهيثم

ولد سنة ٩٦٥م في مدينة البصرة، وهو عالمٌ عربي اشتهر اسمه في علم الرياضيات والهندسة، ونال شهرته على الجهود التي بذلها والدراسات التي قدَّمها عن ((علم الضوء)) والمعروف بالبصريات [١]. فقد وضع أسس علم الضوء في كتابه المناظر الذي ألفه عام ٤١١هـ/ ١٠٢١م، وفيه استثمر خبرته الطبية، وتجاربه العلمية، فتوصل فيه إلى نتائج وضعته على قمة عالية في المجال العلمي، وصار بها أحد المؤسسين لعلوم غيّرت من نظرة العلماء لأمور كثيرة في هذا المجال حتى لقبه العلماء (أمير النور).

أما في علم الفلك فلابن الهيثم نحو ٢٠ مخطوطة في هذا المجال، وقد استخدم عبقريته الرياضية في مناقشة كثير من الأمور الفلكية، كما ناقش في رسائله بعض الأمور الفلكية مناقشة منطقية، عكست عبقرية الرجل من جانب، ومن جانب آخر عمق خبرته وعلمه بالفلك، ومن مؤلفاته:

ارتفاع القطب: وفيه استخرج ارتفاع القطب، وتحديد خط عرض أي مكان.

ضوء القمر: وأثبت أن القمر يعكس ضوء الشمس وليس له ضوء ذاتي.

١- أثر العلماء، ص (١٥١).

الأثر الذي في وجه القمر: وفيها ناقش الخطوط التي تُرى في وجه القمر، وتوصل إلى أن القمر يتكون من عدة عناصر، يختلف كل منها في امتصاص وعكس الضوء الساقط عليه من الشمس، ومن ثمَّ يظهر هذا الأثر.

٢- الخوارزمي:

محمد بن موسى الخوارزمي طابع بريـدي أصدره الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٣م في الذكرى ١٢٠٠ لميلاد الخوارزمي

عبد الله بن موسى ظهر في عصر المأمون، وكان ذا مقامٍ كبير عنده، فأحاطه بأشكال الرعاية والعناية، وولاه منصب رئيس ((بيت الحكمة)) كما جعله على رأس بعثةٍ علميَّة إلى الأفغان بقصد البحث والتنقيب[١].

وقد ترك العديد من المؤلفات في علوم الفلك والجغرافيا من أهمها كتاب الجبر والمقابلة الذي يعد أهم كتبه، وقد ترجم الكتاب إلى اللغة اللاتينية في سنة ١١٣٥م، وقد دخلت على إثر ذلك كلمات مثل الجبر Algebra والصفر Zero إلى اللغات اللاتينية.

وقد عرض في كتابه (حساب الجبر والمقابلة) أو (الجبر) أول حل منهجي للمعادلات الخطية والتربيعية. ويعتبر مؤسس علم الجبر، اللقب الذي يتقاسمه مع (ديوفانتس).

١- أثر العلماء، ص (١٥٣).

٣- البيروني[١]:

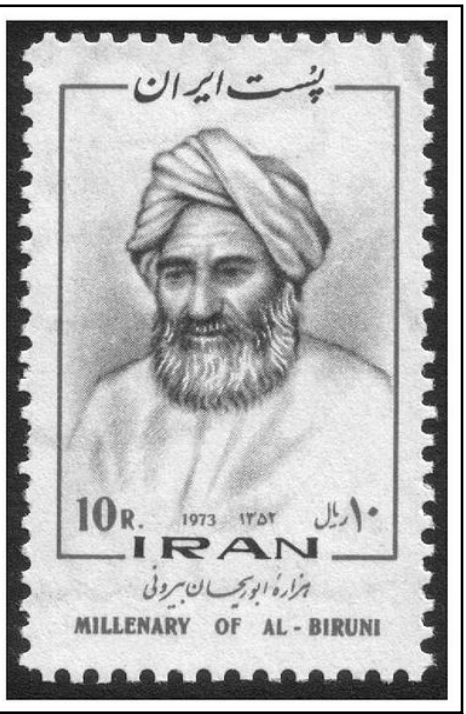

صورة رمزية للبيروني على طابع بريدي إيراني عام ١٩٧٣

وهو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، أصله من فارس، ومولده في بيرون عاصمة خوارزم في التركستان سنة ٩٧٣ م وتوفي فيها عام ١٠٤٨م.

من أشهر مؤلفاته ((الجماهر في معرفة الجواهر)) وقد قام بتحقيق بعض فصوله المستشرق الألماني ((ادوارد سخاو)) ونشر في لندن عام ١٨٧٨م.

أمَّا المستشرق الألماني ((شاخت[٢])) فيقول: «كان البيروني يتمتع بشجاعة فكريَّة فائقة وكان مولعاً بالاطلاع العلمي أشد الولع بعيداً عن الأوهام، محباً للحقيقة، مخلصاً لأبحاثه العلمية إخلاصاً نادراً...».

وقد أطلق عليه المستشرقون تسمية بطليموس العرب.

٥- علم الفلك:

كان أثر الحضارة الإسلامية في الفلك كبيراً جداً، فقد حصلت حركةٌ هائلةٌ في هذا المجال، وأسست المراصد؛ فكان أول مرصدٍ كبيرٍ قد بُني زمن المأمون في

١- المصدر السابق، ص (١٥٨).

٢- Joseph Schacht (١٩٠٢- ١٩٥٩م): مستشرق ألماني متخصص في الفقه الإسلامي شغُل منصب أستاذ في جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية.

بغداد، ومرصدٌ آخر أوجده على جبل قاسيون بدمشق[١].

ويُعدُ الخليفة المأمون أول من اهتمَّ بعلم الفلك، وجعل بغداد مركزاً للعلم، وأقام المأمون عنده جماعةً من فحول العلماء وأمرهم بترجمة كتاب ((المجسطي))[٢].

وبلغ الاهتمام برصد الكواكب ذروته في القرن الرابع الهجري، وقد قيل إن شرف الدولة بن عضد الدولة (٣٧٦- ٣٧٩هـ) لما استقرت قدمه في العراق أمر بأن ترصد الكواكب السبعة في مسيرها وتنقلها في بروجها على مثال ما كان المأمون يفعل[٣]. ونذكر من علماء الفلك:

أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البتاني (٨٥٠- ٩٢٩م):

عالم فلكي سوري، ولد في مدينة بتان من نواحي حران الواقعة على نهر الفرات في سوريا، وهو مهندس وجغرافي وفلكي ورياضياتي من مشاهير أعلام العلوم الطبيعية عند المسلمين، يسميه علماء أوروبا: Albategni، وقد أطلق اسمه على منطقة من مناطق القمر، عاش في عصر ازدهار العلوم في عهد الخليفة المغفور له المأمون بن الخليفة هارون الرشيد.

إسهاماته:

١- يقال أن البتاني أسهم في مجال علم حساب المثلثات.

٢- يقال أيضاً إن البتاني كان من أوائل من اكتشفوا كروية الأرض، وأن كل كوكب يسير في مسار بيضاوي.

٣- أول من اكتشف حركة الأوج الشمسي وتقدم المدار الشمسي وانحرافه.

١- تاريخ الدولة، د. العش، ص (٢٤٩).

٢- أقدم كتاب وصل إلينا مما وضعه الفلكيون في علم الهيئة، معرب عن اليونانية، ومعناه الأكبر، ألفه بطليموس، وعربه حنين بن إسحاق. أثر العلماء، ص (١٦١).

٣- أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٤، ص (١٥٢).

٤- يقول (نيلنو): «إن له رصداً جليلاً للكسوف والخسوف اعتمد عليها العالم دنتورن سنة ١٧٤٩ م في تحديد تسارع القمر في حركته خلال قرن من الزمان».

٥- يقول (لالند) الفرنسي: «البتاني أحد الفلكيين العشرين الأئمة الذين ظهروا في العالم كله».

ملاحظة: البتاني، تنطق (البِتّاني) بكسر الباء أو (البَتّاني) بفتح الباء.

٦- الترجمة:

كان الخلفاء العباسيون يشجعون على تنشيط حركة الترجمة، فأقبل العلماء والأدباء إليهم نتيجة الاهتمام الهائل الذي وجدوه من الخلفاء.

ومن المترجمين المهرة نذكر عبد الله بن المقفع[١]، وأشهر ما ترجمه كتاب (كليلة ودمنة)، وقد وضع الأصل بالسنسكريتية[٢]، ثم ترجم إلى الفارسية، ومنها ترجمه ابن المقفع إلى العربية، وقد حفظته اللغة العربية للفكر الإنساني، ومنها ترجم إلى جميع اللغات الأوربية وإلى كثيرٍ من اللغات الأخرى[٣].

ونذكر أيضاً الحجاج بن يوسف بن مطر وهو أول مترجمٍ لكتاب العناصر لإقليدس، ونقل إسحاق بن حنين[٤] إلى اللغة العربية كتباً كثيرةً منسوبةً إلى أفلاطون وأرسطو والإسكندر وغيرهم[٥].

١- (٧٢٤- ٧٥٩م) مؤلف وكاتب عربي مسلم، فارسي الأصل عاش في البصرة.

٢- هي اللغة الهندية القديمة.

٣- د. أحمد شلبي، جـ٣، ص (٢٤١).

٤- (٢١٥-٢٩٨هـ / ٨٣٠-٩١٠م) كان أوحد عصره في الطب، وهو ينتمي لقبيلة عباد العربية النصرانية، وقد اعتنق الإسلام في آخر حياته.

٥- المصدر السابق، ص (٢٤٢، ٢٤٣)

٧- الفلسفة:

أ- الكِندي:

يعقوب بن إسحاق الكندي، من قبيلة كِندة اليمنية التي ينسب إليها امرؤ القيس الشاعر وسمي لأجل ذلك فيلسوف العرب وكان- كما يقول ابن النديم في وصفه «فاضل دهره وواحدٌ عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها... وكتب في علوم مختلفة مثل المنطق والفلسفة والهندسة والموسيقى والنجوم».

نشأ الكندي في الكوفة وتعلم في البصرة ثم في بغداد، واشتهر الكندي بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية، وتنقيح ما ترجمه غيره من المترجمين، واشتغل بالرياضيات، وما وراء الطبيعة، وقد حذا في تأليفه حذو أرسطو، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وشرح غوامضها، وكان معاصراً للمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل[١].

ب- الفارابي:

أبو نصر محمد بن محمد الفارابي، كان أبوه من كبار القواد وقد تنقل الفارابي في أمهات المدن يجمع العلم، وكان أن اتصل الفارابي ببلاط سيف الدولة الحمْداني صاحب حلب، وصحب سيف الدولة عند دخوله دمشق، ومات بها سنة ٣٩٩هـ، وترجع شهرته إلى شروحه الكثيرة على مؤلفات أرسطو، حيث لقب بالمعلم الثاني، تميزاً له عن أرسطو الذي لقد بالمعلم الأول، كما يمتاز الفارابي برسائله الكثيرة في علم النفس والإلهيات، كما كتب عدة رسائل للتوفيق بين آراء أرسطو وأفلاطون، كما نشرت له رسالة آراء أهل المدينة الفاضلة[٢]، كما تكلم الفارابي في الأخلاق والمنطق، وتكلم عن الموجود والله، وعن العالم

١- د. حسن إبراهيم حسن، جـ٣، ص (٣٨٠، ٣٨١).

٢- طبعة مصر سنة ١٣٢٣هـ.

العُلوي، والعلم السُفلي، وبحث في النفس الإنسانية والعقل[1].

أبو القاسم عباس بن فرناس:

ولد برندة[2] عام ٨١٠ م، وتوفي بقرطبة عام ٨٨٧ م، وهو مخترع وفيلسوف أندلسي. عاش في عصر الخليفة الأموي الحكم بن هشام، وعبد الرحمن الناصر لدين الله، ومحمد بن عبد الرحمن الأوسط وذلك في القرن التاسع للميلاد.

كان له اهتمامات في الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء. ذكر المؤرخون بعض اختراعاته، ومنها ساعة مائية سماها «الميقات»، وهو أول من وضع تقنيات التعامل مع الكريستال، وصنع عدة أدوات لمراقبة النجوم.

وهو أول من اخترق الجو من البشر وأول من فكر في الطيران، فقد كسا نفسه الريش ومد له جناحين طار بهما في الجو مسافة بعيدة ثم سقط فتأذى في ظهره لأنه لم يعمل له ذنباً، وقد وصف شعراء عصره هذا الطيران وأكثروا في الثناء عليه.

ومن الواضح حسب المصادر أن عباس بن فرناس قام بتجربته في الطيران بعد أبحاث وتجارب عدة، وقد قام بشرح تلك الأبحاث أمام جمع من الناس دعاهم ليريهم مغامرته القائمة على الأسس العلمية.

فقد قام عباس بن فرناس بتجارب كثيرة، درس في خلالها ثقل الأجسام ومقاومة الهواء لها، وتأثير ضغط الهواء فيها إذا ما حلقت في الفضاء، وكان له خير معين على هذا الدرس تبحّره في العلوم الطبيعية والرياضية والكيمياء فاطلع على خواص الأجسام، واتفق لديه من المعلومات ما حمله على أن يجرب الطيران الحقيقي بنفسه.

١- راجع كتاب دي بور، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص (١٢٧) وما يليها.

٢- مدينة إسبانيا.

صمم في ليبيا طابع بريد يصور محاولته الطيران ، وضع له تمثالٌ على طريق مطار بغداد الدولي، وسمي مطار آخر شمال بغداد باسمه. تكريماً له، وسميت فوهة قمرية باسمه وتعرف بفوهة ابن فرناس القمرية.

محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام الطبري:

(٨٣٨-٩٢٣م /٢٢٤ -٣١٠ هـ) مؤرخ ومفسر وفقيه مسلم صاحب أكبر كتابين في التفسير والتاريخ. يعتبر أكبر علماء الإسلام تأليفًا وتصنيفًا.

محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي الشهير بابن بطوطة:

(١٣٠٤- ١٣٧٧م / ٧٠٣- ٧٧٩هـ) هو رحّالة ومؤرخ وقاضٍ وفقيه مغربي، ولد في طنجة بالمغرب. ألف كتاب تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار؛ الذي ترجم إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والإنجليزية، ونشر فيها، وترجم فصولٌ منه إلى الألمانية.

صورة تخيلية لابن بطوطة

كان ابن بطوطة يحسن التركية والفارسية، وقام بثلاث رحلات استغرقت في مجموعها نحو ثلاثين سنة، وكان أطولها الرحلة الأولى التي زار خلالها معظم نواحي المغرب والمشرق، حيث كانت أطول إقامة له في بلاد الهند حيث تولى القضاء سنتين، ثم في الصين حيث تولى القضاء سنة ونصف السنة، وفي هذه الفترة وصف كل ما شاهده وعاينه فيهما

وذكر كل من عرفه من سلاطين ورجال ونساء ووصف ملابسهم وعاداتهم وأخلاقهم وضيافتهم وما حدث في أثناء إقامته من حوادث.

تلقبه جامعة كامبريدج في كتبها وأطالسها بأمير الرحالة المسلمين الوطنيين.

شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي:

أديب ومؤلف موسوعات وخطّاط اشتغل بالعلم وأكثر من دراسة الأدب. وأهم مؤلفاته كتابهُ المعروف (معجم البلدان) الذي ترجم وطبع عدة مرات.

وهو سوري ولد في مدينة حماة عام ٥٧٤هـ / ١١٧٨م، ويلقب بالحموي نسبة لمدينته حماة، وقد أسر الروم والدهُ في غارة لهم على مدينة حماة، فلم يستطع الحمْدانيون فداءه مثل غيره من العرب فبقي أسيراً بها، وتزوج من فتاة رومية فقيرة أنجبت «ياقوتا» ولهذا لقب بالرومي. توفي سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٥م.

أحمد ابن العباس ابن رشيد المعروف بابن فضلان:

عالم مسلم من القرن العاشر الميلادي وإليه يعود أقدم وصف لروسيا والذي قام بكتابته عام ٩٢٢ م، حيث زارها بصفته عضواً في سفارة الخليفة العباسي إلى ملك الصقالبة.

علي بن حزم الأندلسي (٣٨٤ هـ-٤٥٦هـ / ٩٩٤-١٠٦٤م):

هو الأمام البحر، ذو الفنون والمعارف، أكبر علماء الإسلام تصنيفًا وتأليفًا بعد الطبري، وهو الإمام الحافظ، ووزيرٌ سياسي لبني أمية. يعد من أكبر علماء الأندلس.

ابن خلدون (٧٣٢–٨٠٨هـ / ١٣٣٢–١٤٠٦م):

مؤسس علم الاجتماع ومؤرخ مسلم، ولد في تونس وكانت أسرته أسرة علم وأدب، فقد حفظ القرآن الكريم في طفولته، وكان أبوه هو معلمه الأول،

وقد شغل أجداده في الأندلس وتونس مناصب سياسية ودينية مهمة وكانوا أهل جاه ونفوذ.

ما قيل في وصفه:

«ابتكر ابن خلدون فلسفةً للتاريخ هي بدون شك أعظم ما توصل إليه الفكر البشري في مختلف العصور والأمم». أرنولد توينبي.

«إن مؤلف ابن خلدون يمثل ظهور التاريخ كعلم، وهو أروع عنصر فيما يمكن أن يسمى بالمعجزة العربية». ايف لاكوست.

«تُرى أليس في الشرق آخرون من أمثال هذا الفيلسوف». لينين

أبو حامد محمد بن أحمد الغزالي الشافعي:

الملقب بحجة الإسلام، مجدد القرن الخامس الهجري، ولد في مدينة طوس الفارسية في خراسان عام ٤٥٠هـ. وهو عالم وفقيه إسلامي، أحد أهم أعلام عصره وأحد أشهر علماء الدين في التاريخ الإسلامي.

التربية الأخلاقية عند الغزالي

يرى الغزالي أن الأخلاق الفاضلة لا تولد مع الإنسان، وإنما يكتسبها عن طريق التربية والتعليم من البيئة التي يعيش فيها.

والتربية الأخلاقية السليمة في نظر الغزالي تبدأ بتعويد الطفل على فضائل الأخلاق وممارستها مع الحرص على تجنيبه مخالطة قرناء السوء حتى لا يكتسب منهم الرذائل، وفي سن النضج العقلي تشرح له الفضائل شرحاً علمياً يبين سبب عدها فضائل وكذلك الرذائل وسبب عدها رذائل حتى يصبح سلوكه مبيناً على علم ومعرفة واعية.

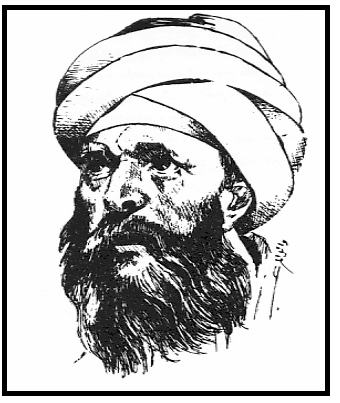

رسم تخيلي
للغزالي

تمثال لابن خلدون في قلب العاصمة بساحة الاستقلال في تونس

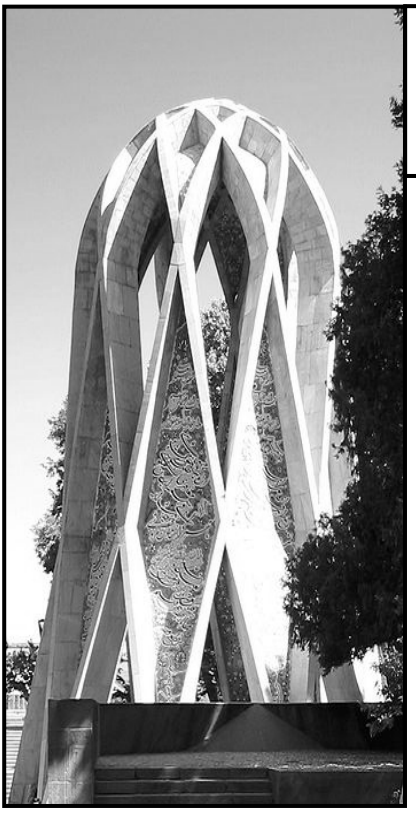

قبر عمر الخيام في
نيابسبور في إيران

تمثال لمحمد بـن موسى الخوارزمي

علي بـن حزم الأندلسي طابع بـريدي إسباني في ذكرى ألفيته

ثامناً: مراكز الثقافة:

ونذكر في هذه الفِقْرة حال بلاط بعض الأقاليم التي انفصلت عن جسد الخلافة:

أ- البلاط السامانى في بخارى:

يصف الثعالبي مدينة بخارى قائلاً: «كانت بخارى في الدولة السامانية مثابة المجد، وكعبة المُلك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم الأرض»[1].

وكانت مكتبة نوح بن نصر الساماني- كما يقول ابن خَلِّكان- «عديمة المثل، فيها من كل فنٍّ من الكتب المشهورة بأيدي الناس، وغيرها مما لا يوجد في سواها، ولا سمع باسمه فضلاً عن معرفته»[2].

١- يتيمة الدهر، جـ٤، ص (٩٥).

٢- وفيات الأعيان، جـ١، ص (١٥٢، ١٥٣).

ب- بلاط الحمْدانيين في الموصل وفي حلب خاصة:

لقد كانت حاضرة سيف الدولة مقصد الوفود وموسم الأدباء وحلبة الشعراء، ويقال إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع على بابه من شيوخ الشعراء ونجوم الدهر، فقد كان سيف الدولة أديباً شاعراً محباً للشعر شديد الاعتزاز يمدح به[1].

جـ- بلاط الطولونيين والإخشيديين، والفاطميين في مصر:

اشتهر عصر الطولونيين بمصر بطائفة كبيرةٍ من العلماء والمحدثين والأدباء والمؤرخين، وكذلك كان حال الفاطميين أيضاً فقد اتخذوا من قصورهم مراكز لنشر الثقافة، وألحقوا بها مكتباتٍ تحتوي مئات الألوف من المصنفات، وروى المقريزي «أنه كان في القصر أربعون خزانةً، منها خزانةٌ تحتوي على ١٨٠,٠٠٠ مجلد في العلوم القديمة»[2].

وقد أسس الخليفة الفاطمي الحاكم في سنة ٣٩٥هـ (١٠٠٥م) «دار الحكمة» على مثال أكاديميات بغداد وقرطبة، وألحق بها مكتبة أطلق عليها «دار العلم» حَوت ما لم يجتمع مثله في مكتبةٍ من المكتبات آنذاك[3].

د- بلاط الأمويين في قرطبة:

لقد نافست قرطبة بغداد والقاهرة وبخارى وأصبهان وغيرها من أمهات المدن الإسلامية، فأصبحت حاضرة الأندلس سوقاً نافقاً للعلم، وكعبةً لرجال الأدب، وجذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من

١- د. حسن إبراهيم حسن جـ٣، ص (٣٣٦).

٢- المقريزي، خطط، جـ١، ص (٤٠٧)

٣- المصدر السابق، ص (٤٥٨)، والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص (٢٧٣).

مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية[١].

وقد زخرت مكتبة قرطبة بكثيرٍ من المصنفات في مختلف العلوم والفنون، فقد بذل الحكم المستنصر الأموي جهودا بعيدة الأثر في توجيه الدراسة الأندلسية في ميادين العلوم والطب فكانت المكتبة التي أنشأها تضم بين خزائنها أربعمائة ألف مجلد في وقت لم تُعرف فيه الطباعة، وكانت الفهارس التي وضعت لها في غاية الاختصار، وكان في قرطبة نفسها عدد كبيرٌ من النَّاسخين والمجلدين والمزخرفين[٢].

تاسعاً: قصور الخلفاء:

كانت قصور الخلفاء أشبه بمدنٍ كبيرة لاتساعها، ويشتمل القصر على دورٍ وبساتين وبركٍ مائية تظللها الأشجار، كما كانت تشتمل على قاعاتٍ ذات قبابٍ وأورقة، ويزيد في جمال هذه القصور البرك والأنهار الجارية، وكان القادر يجلس في قصره المعروف ببيت الرصاص بين يديه نهرٌ يجري الماء فيه إلى دجلة [٣].

ولم تكن قصور الأمويين في الأندلس بأقل روعة وبهاء من قصور العباسيين، فقد اشتهرت قرطبة والزهراء وطليطلة وغيرها من أمهات مدن الأندلس بقصورها الفخمة.

ومن قصور الأندلس القصر الذي بناه المأمون بن ذي النون بطليطلة، وقد أنفق على بنائه أموالاً ضخمة، وكان قد جعل في وسطه بحيرةً في وسطها قبةٌ من زجاجٍ ملونٍ منقوش، وجلب الماء إلى القبة بحيث كان ينزل من أعلاها ويحيط بها من جوانبها، وتوقد فيها الشموع، فيُرى لذلك منظر عجيب بديع[٤].

١- د. حسن إبراهيم، جـ٣، ص (٣٣٨).

٢- المصدر السابق نفسه.

٣- هلال الصابي، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص (٤٢٠).

٤- المقري، نفح الطيب، جـ١، ص (٢٥٠، ٢٥١).

ونذكر من القصور الإسلامية ما يلي:

قصر الحير الشرقي:

يقع القصر في البادية السورية بالقرب من مدينة السخنة[1] نحو ١٠ كم شرقاً. بناه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك عام ١١٠ هجرية، يقع القصر ضمن نطاق مدينة أثرية كاملة كانت منتجعاً للخليفة في العصر الأموي.

ويتألف القصر من طابقين، وله بوابة ضخمة محاطة ببرجين دائريين وثلاث بوابات في محيط القصر وأبراجه مستديرة، وتحيط به البساتين والبيوت الخاصة بالحاشية ودور الخدمة والمخازن والمطابخ والحمامات.

وقد أوضح (هرزفيلد) أحد الأثريين الذين عملوا في موقع المدينة أن بناء المسجد وبعض المرافق قد سبقت بناء القصر، ويعد قصر الحير الشرقي مع قصر الحير الغربي الواقع غرب مدينة تدمر نموذج للفن الأموي الذي انتشر في المدن الإسلامية والأندلس بعد ذلك.

وقد زار القصر الكثير من الرحالة والكتاب والمستشرقين وكتب عنه الكثير حيث كتب عنه الكاتب (ألبرت غبرييل) وأطلق علية اسم «مدينة في الصحراء».

قصر المشتى:

هو أحد القصور العربية التي بناها الأمويون في الشام. يقع القصر على مسافة ٣٢ كم جنوب شرق مدينة عمّان. بناه الخليفة الأموي الوليد بن يزيد عام ٧٤٤م. ويحيط بالقصر سور مربع طوله ١٤٤ متراً فيه ٢٥ برجاً دائرياً، عدا برجي المدخل فهما بشكل نصف مثمن.

١- السخنة: مدينة سورية تابعة لمحافظة حمص، تقع بين مدينة حمص ومحافظة دير الزور وتبعد عن مدينة تدمر الأثرية قرابة ٧٠ كيلومتراً شرقاً.

يقسم القصر إلى ثلاثة أجنحة، الجناح الأوسط مقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام هم القسمان الشمالي والجنوبي ويضمان الأبنية الرئيسية، أما القسم المتوسط في الجناح الأوسط فهو يشكّل صحناً مكشوفاً.

إلا أن أجمل ما في قصر المشتى من الناحية الفنية هو الزخارف المحفورة في الحجر الجيري في الواجهة القبلية التي يقع بها المدخل. ونقلت تلك الواجهة إلى قسم الفنون الإسلامية بمتحف برلين، ونرى في قصر المشتى بعض العناصر الفنية التي تشبه زخارف قبة الصخرة.

قصر أو قصير عمرة:

هو قصر صحراوي أموي يقع في شمال الصحراء الأردنية في منطقة الأزرق في محافظة الزرقاء حوالي ٧٥ كم شرقي عمان، بناؤه صغير نسبياً لذلك يُسمّيه البعض بالقصير.

شيد القصر في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك سادس الخلفاء الأمويين ٧٠٥-٧١٥م. ويعتقد أن القصر كان يستخدم لرحلات الصيد التي يقوم بها الخلفاء وأمراء بني أمية.

وللقصر حمام مجاور لقاعة الاستقبال يتكون من ثلاث قاعات، اثنتان مسقوفتان بأقبية نصف دائرية والثالثة مسقوفة بقبة صغيرة. يتكون الحمام، الذي لا زال بحالة جيدة؛ من ثلاث قاعات: باردة وفاترة وساخنة، الأخيرة مزودة بأنابيب للبخار. ملحق بالحمام غرفة كبيرة لخلع الملابس مزودة بمقصورتين.

زخرفت جُدُر القصر برسومٍ ونقوشٍ عديدة، مواضيعها تتعدد من مشاهد من رحلات الصيد والحيوانات التي وجدت في المنطقة في تلك الحقبة، ومنها النمور والغزلان والنعام، أما قبة الحمام تظهر فيها الأبراج السماوية مرسومةً على نحوٍ هندسي ويشبه الحمامات الرومانية بشكلها ومكوناتها.

قصر الحمراء:

هو قصر أثري وحصن انتهى بناؤه في عصر بني الأحمر حكام غرناطة المسلمين في الأندلس بعد سقوط دولة الموحدين. وهو من أهم المعالم السياحية بإسبانيا، ويقع على بعد ٤٣٠ كيلومتراً جنوب مدينة مدريد. تعود بداية تشييد قصر الحمراء إلى القرن السابع الهجري، الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي، ومن سمات العمارة الإسلامية الواضحة في أبنية القصر؛ استخدام العناصر الزخرفية الرقيقة في تنظيمات هندسية كزخارف السجاد، وكتابة الآيات القرآنية والأدعية، بل حتى بعض المدائح والأوصاف من نظم الشعراء كابن زمرك، ويتكون القصر من:

فناء الريحان الكبير: هو مستطيل الشكل، تتوسطه بركة المياه التي تظللها أشجار الريحان؛ نقشت في زوايا فناء الريحان الآية الكريمة «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم»، وفي النهاية الجنوبية لهذا البهو باب عربي ضخم.

بهو السفراء: يؤدي البهو الذي يلي فناء الريحان من الجهة الشمالية إلى بهو السفراء الذي يعد أضخم أبهاء الحمراء سعةً، ويبلغ ارتفاع قبته ٢٣م. ولهذا البهو شكل مستطيل أبعاده (١٨ × ١١م) . وفيه كان يعقد مجلس العرش، ويعلوه برج السفراء المستطيل.

فناء السّرو: يؤدي بهو البركة من جهة اليمين إلى باحة السرو. وإلى جانبها الحمامات الملكية، وأول ما يلفت النظر غرفة فسيحة زخارفها متعددة الألوان مع بروز اللون الذهبي ثم الأزرق والأخضر والأحمر، وفي وسطها نافورة ماء صغيرة، وتعرف باسم غرفة الانتظار. أما الحمامات فتغمرها الأنوار الداخلة عبر كوات بشكل ثريات وأرضها مرصوفة بالرخام الأبيض.

بهو الأسود: أشهر أجنحة قصر الحمراء. قام بإنشاء هذا الجناح السلطان محمد الغني بالله ٧٥٥هـ/١٣٥٤م ـ ٧٩٣هـ/١٣٩١م. وهو بهو مستطيل الشكل أبعاده (٣٥م × ٢٠م) تحيط به من الجهات الأربع أروقة ذات عقود يحملها /١٢٤/ عموداً من الرخام الأبيض صغيرة الحجم وعليها أربع قباب مضلّعة. في وسط البهو (نافورة الأسود)، على حوضها المرمري المستدير اثنا عشر أسداً من الرخام، تخرج المياه من أفواهها بحسب ساعات النهار والليل.

وقد تعطلت مخارج المياه في هذه البركة حين حاول الإسبان تعرُّف سر انتظام تدفق المياه بالشكل الزمني الذي كانت عليه.

ومن الجدير بالذكر أن الحضارة الإسلامية استخدمت الفوارات في زخرفة الحدائق العامة والخاصة، وقد وصلت براعة المهندسين المسلمين في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، حداً كبيراً في صنع أشكال مختلفة من الفوارات يفور منها الماء كهيئة السوسنة، ويتم تغييرها حسب الحاجة ليفور الماء كهيئة الترس وفي أوقات زمنية محددة، وتمثل فوارات قصر الحمراء نموذجاً متطوراً لما وصلت إليه إبداعات المسلمين في ذلك الوقت.

قاعة الملوك (أو قاعة العدل): في جهة شرق بهو الأسود مدخل قاعة الملوك. زين سقف القاعة الوسطى بصور عشرة من ملوك غرناطة تعلوهم العمائم، تعبر ملامحهم عن الوقار والكبرياء. أولهم محمد الغني بالله. وآخرهم السلطان أبو الحسن والد أبي عبد الله. وهناك صور فرسان ومشاهد صيد.

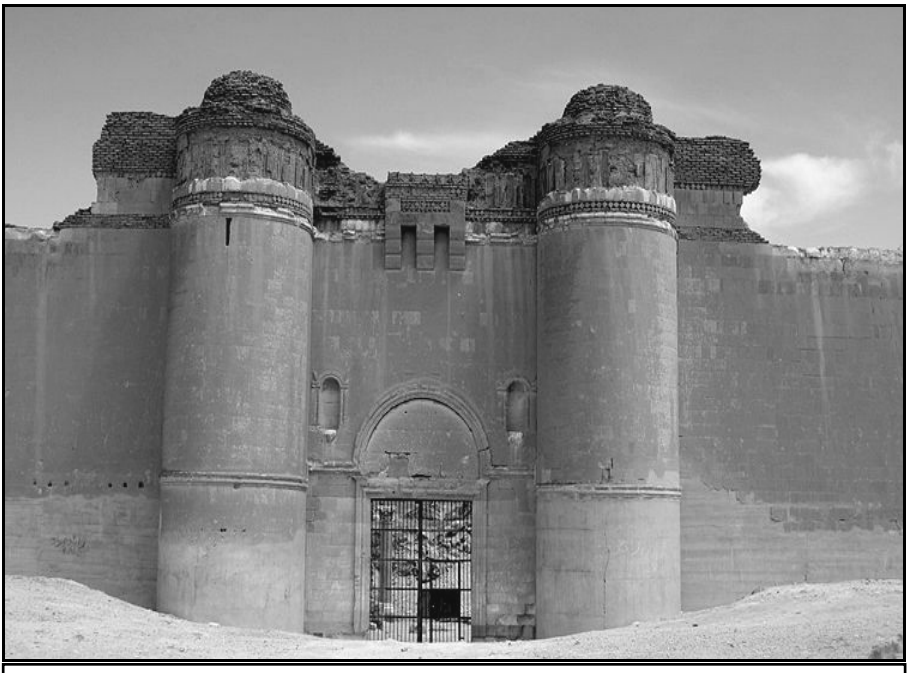

واجهة قصر الحير الشرقي

النجمة الشهيرة لقصر هشام

صورة خلفية للقصر وتتضح الأقواس الثلاثة لقصر عمرة

ب- هو الأسود أشهر أجنحة قصر الحمراء

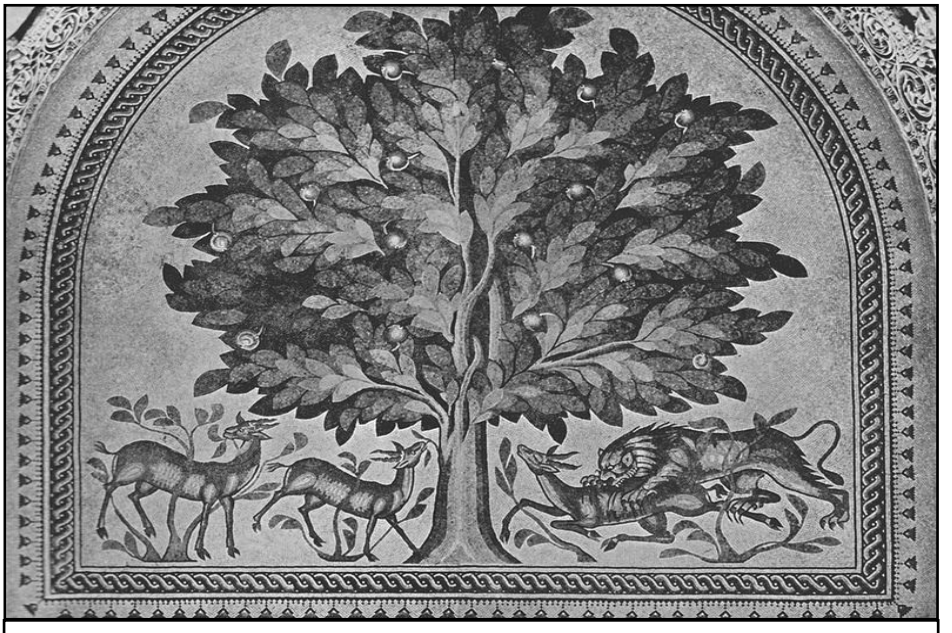

فسيفساء على أرضية إحدى قاعات قصر هشام في أريحا

الخاتمة

وبهذه العلوم البهيَّة، وأفانين الحضارة الإسلامية العريقة نكون قد أنهينا بحثنا عن الخلافة العباسيَّة صاحبة أطول مدَّة بقاء، فإذا أخذنا بالحسبان زمن مكوثهم في مصر والخلافة باسمهم فقط مجردين من الملك والسلطان، يكون البيت العباسي بذلك أطول بيتٍ بقيت الخلافة باسمه، وهذه المدَّة التي نتكلم عنها هي: (١٣٢-٦٥٦هـ) في العراق، ثمَّ (٦٥٦- ٩٢٣هـ) في مصر تحت سلطان المماليك.

وكان سبب عدم خوضنا في التاريخ المطوَّل لخلفاء بني العباس هو اتساعه وكثرة أحداثه وتعدد أسماء رجاله وأمرائه، فقد كان بعض الخلفاء العباسيين على سبيل المثال يكثرون من تبديل وزرائهم؛ فقد تولى الوزارة في عهد المقتدر اثنا عشر وزيراً، ومنهم من تقلد الوزارة مرتين أو ثلاثاً،- ويا للأسف- كانت تنال بالرشوة ولم يكن الصالح منهم يبقى في العمل طويلاً؛ لأن مقدار طول المدة كان على رضا أم الخليفة المقتدر وخدم الدار وهؤلاء لا يرضون إلا إذا أُعطوا المال الكثير[1].

ولما كانت دراسة التاريخ دراسة موضوعيَّة وحياديَّة، وجب عليَّ أن أقف عند بعض المنغصات، والمساوئ التي عكَّرت صفو هذه الحضارة الإسلامية العباسية.

والتي نذكر منها على سبيل المثال تلك الثورات الكثيرة، والفرق المتعددة المتناحرة التي ظهرت في عصر الخلافة العباسية، والتي لا يمكن الوقوف على أسبابها وتفاصيلها دون اللجوء إلى أمهات الكتب التاريخية، ولكن نسوق هنا بعضاً من أبرزها؛ كثورة بابك الخرّمي[2] التي ظهرت في عهد المأمون، وتمَّ القضاء عليها زمن المعتصم.

١- تاريخ الأمم الإسلامية / التاريخ العباسي، الشيخ محمد الخضري بك، ص (٣٩٠).
٢- فتنة بابك الخرمي (٢٠١-٢٢٢هـ) .

وظهر في زمن المعتمد على الله[1] رجلٌ عُرف (بدعيِّ آل علي)، وكان قد خدع الناس بنسبه لآل البيت، وكان رجال ثورته من الزنوج؛ لذا عرف أيضاً باسم صاحب الزنج.

ويقول الشيخ محمد الخضري بك عن تلك الثورة: «كان خروج صاحب الزنج في يوم الأربعاء لأربعٍ من شهر رمضان سنة ٢٥٥هـ، وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة ٢٧٠هـ، وكان دخوله على البصرة وقتله أهلها وإحراقها سنة ٢٥٧هـ»[2].

وكانت نهاية صاحب الزنج على يد الموفق أخي الخليفة المعتمد. وذكر ابن طباطبا في الفخري أن عدد قتلى هذه الثورة هو مليونان ونصف المليون، وفي روايةٍ للسيوطي في تاريخ الخلفاء أنَّ عدد القتلى كان مليوناً ونصف المليون، والله تعالى أعلم بعدد القتلى إلا أنَّ المتفق عليه أن الله أنجى العالم الإسلامي من الفوضى والجهل اللذين كانا طابع هؤلاء الرَّعاع[3].

ونُنهي تلك الثورات، بأكثر الحوادث بشاعةً وخُزياً؛ وهي حادثة القرامطة؛ حيث كان القرامطة حركةً ثوريَّة تعترض طرق القوافل وتسرق ما يحلو لها من الأمتعة والأموال، كان ظهورهم أواخر دولة المعتمد إلا أنَّ أعدادهم أخذت تتزايد، وقويت شكيمتهم، حتى هابتهم الولايات الأخرى كافة.

أمَّا حادثة القرامطة: فكان قد اتجه قائدهم سنة ٣١٧هـ نحو مكة، فدخلها يوم التروية ولم يرع حرمة البيت الحرام، بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج

١- المعتمد بالله (٨٧٠-٨٩٢م) هو أحمد المعتمد على الله. أبو العبّاس ابن المتوكّل على الله.
٢- تاريخ الأمم الإسلامية / التاريخ العباسي، الشيخ محمد الخضري بك، ص (٢٤٠- ٢٤٢).
٣- د. أحمد شلبي، جـ٣، ص (٤٠٠).

وقتلوهم عند المسجد الحرام وقلع الحجر الأسود وباب البيت وألقى الجثث في بئر زمزم وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه، ولم يحصل في التاريخ كله أن انتُهكت حرمة البيت المحرم إلى هذا الحد[1].

ثم كان أن أرجع الحجر الأسود إلى مكة بعد أن أبقاه عنده قرابة ثلاثين عاماً، وذلك عندما توسَّط الخليفة الفاطمي المهدي عبيد الله العلوي معهم بشأن إعادته[2].

وبهذا الوصف السريع لبعض أخطر وأعظم الحوادث والثورات ننهي بحثنا عن الخلافة العباسية، مستدلين بخلاصةٍ مفادها:

«أن الشعوب وحدها هي التي تقدر على صنع التاريخ فبالرغم من كل ما ذكرناه، أو لم نذكره من حوادث يندى لها الجبين، فقد كان علماء ذلك العصر يزاولون علومهم ويزدادون في الرقي مكانة تشمخ لها الأبصار».

ولنكن واقعيين بما نقول: «هل امتنع الغرب عن التعلم منا والأخذ من علومنا بسبب ما كان من حوادث مخزية، هل استفاض علماء الغرب بالحديث عن أخطاء العصر العباسي فاستنكروه، وشوهوه كما فعل بعض أدبائنا ومؤرخينا، أم أنهم أخذوا المفيد النافع، لا بل شهر عدد من أدبائهم أقلام الصدق ليعترفوا بفضل هذا العصر الذهبي، وما حمل إليهم من علومٍ واكتشافات».

لقد ذكرت هذا الكلام لأوضح مدى السلبية التي تعيشها مجتمعاتنا، فهم بالإضافة إلى جهلهم بتاريخ أجدادهم، وتقاعسهم عن القراءة والتحقيق بمجريات الماضي، يهاجمون رجاله وينسبون كل نقيصةٍ لهم، شأنهم شأن الظمآن يمسك الماء بين يديه ولا يعلم أن به ارتواءه.

١- تاريخ الأمم الإسلامية / التاريخ العباسي، الشيخ محمد الخضري بك، ص (٣٩٤).

٢- د. يوسف العش، ص (١٦٢).

أفلا يجب على كلٍ منَّا أن يعتز بالتاريخ الإسلامي، وأن يحفظه في صدره، بل أن يورث أبناءه عشقه وفهمه، فنحن أمةٌ كان لها تاريخها المشرق، فإمَّا أن نكتفي بمعرفته؛ لكي لا نشعر بعجزنا وضعفنا، وأننا عالة على الغرب الذي تعلَّم العلم من أجدادنا الذين أدرنا لهم ظهورنا، أو أن نعيد قراءة التاريخ على نحوٍ أعمق وأوسع، على نحوٍ يدفعنا إلى إعادة تطبيق ذلك المنهج الذي به هابنا العالم، وأسرع في طلب علومنا ومعرفتنا، فبالقراءة والعمل الدَّؤوبين والإيمان التَّام بالله تعالى يمكننا أن نعيد مجد أمتنا الضائع، ونُخطَّ التاريخ من جديد بقلوبٍ يملؤها الإيمانُ بالله ورسوله، وبأيدٍ تدفعها الغيرةُ والحماس. وحسبنا قوله عزَّ وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].